الإسلام واستباحة الدماء (*)

الأستاذ عصام العطار

هل يستبيحُ الإسلامُ دماءَ الأبرياء حتى من الأطفال والنساء ، كما يدّعي عليه المدّعون ، ويُرَوِّج المروِّجون ، في عدد من البلاد ووسائل الإعلام ؟!

لا يقول ذلك إلا جاهلٌ ، أو كاذب ، أو مُضَلَّلٌ بما ينشره الجاهلون ، ويفتريه المضلِّلون ، ويزوِّرونه بمختلف الألوان والأشكال

فالإسلام يعصم دماء الأبرياء (1) ، ولا يستبيحها ولا يبيحها بحال من الأحوال ، ويَعُدُّ استباحتها ولو كانت دماء فردٍ واحد أو أفراد ، كبيرةً من أكبر الكبائر ، وجريمةً من أفظع الجرائم ، وعدواناً خطيراً على الحياة الإنسانية كلّها ، وعلى البشر جميعاً

قال تعالى : ﴿ ... **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ... ﴾ [المائدة : ٣٢]

وجعل الله تعالى من أخصّ خصائص عباده المؤمنين الصادقين ، الذين اصطفاهم من خلقه ، ونسبهم لنفسه ، وزيّنهم بأكرم الصفات ، وأجملها : أنهم لا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق

قال تعالى في صفات عباده الفائزين هؤلاء : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۞**

(*) انظر : الإسلام والعنف ، والإسلام والانتقام الأعمى ، في العدد : ٢٤٨ من الرائد

(1) أن يحفظُها ويحميها ويمنع إراقتها

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان : ٦٨-٧١]

ولا يجوز قتل الأطفال والنساء غير المقاتلات ، والرجال غير المقاتلين ، أو غـــير القادرين على القتال في الحرب

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « **أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً ؛ فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ** »

وفي أحاديث أخرى :

أنه بعث رجلاً في غزوة من غزواته إلى خالد بن الوليد ، وكان خالد على المقدّمة ، فقال : « **قُلْ لِخَالِدٍ : لاَ تَقْتُلِ امْرَأَةً وَلاَ عَسِيفًا** [٢] » رواه أبو داود

« **إِلْحَقْ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ : لاَ يَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلاَ عَسِيفًا** » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة

وروى أبو داود عن أنس ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « **لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا ، وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا ، وَلاَ امْرَأَةً .. وَأَصْلِحُوا ، وَأَحْسِنُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** »

وقد جمع الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ عنه عدداً من وصايا رسول الله ﷺ للمسلمين في الحرب ، في وصيته الجامعة لجيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، ومما جاء فيها :

« يا أيها الناس!

لا تخونوا ، ولا تَغُلّو ، ولا تغدِروا ، ولا تُمَثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلاّ لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فَرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له .. »

---

(2) العسيف : الأجير

وقد كان الخلفاء الراشدون من بعد رسول الله ﷺ يحرصون على توجيه الجند الإسلاميّ إلى مراقبة الله في أنفسهم ، وفي خصومهم ، وفي مختلف تـــصرفاتهم ، وإلى الابتعاد في مختلف ظروفهم عن المعاصي والآثام ، وبضبط النفس ، وإقامة العدل والتَّحرُّر من الظلم ، والتحلّي بأقوم السلوك وأكرم الأخلاق على الدوام ، كما يظهر لنا ذلك في كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص :

« كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد :

أما بعد ؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإنّ تقوى الله أفضلُ العدَّة على العدوّ ، وأقوى المكيدة في الحرب .

« وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإنّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم .

« واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظةً من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله .

« واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر علـــى عـــدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم

« ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح

« واللهُ وليُّ أمرك ومن معك ، ووليُّ النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » .

فالحرب في الإسلام لها قيودُها وآدابُها وأخلاقُها الإنسانية ، وليست انفلاتاً من كلِّ قيد ، واستباحةً لكل عمل ، وطلباً لِلْغَلَبَةِ بأيِّ سبيل

الحربُ في الإسلام يجب أن تكون لها أهدافُها المشروعة ، ومبرراتُها المشروعة ، ووسائلُها المشروعة ، وتصرفاتُها المشروعة أيضاً ، وهو يؤثر السلم على الحـــرب ما أمكنتْ سُبُل السلم ، ويميل إليه إن مال إليه الخصوم : ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... ﴾ [الأنفال : ٦١]

وأعود إلى قضية قتل النساء والأطفال في الحرب

قال الإمام مالك والإمام الأوزاعي – كما نقل ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري :

– « لا يجوز قتل النساء والصبيان بحال ، حتى لو تَتَرّس أهل الحرب بالنساء والصبيان ، أو تَحَصّنوا بحِصْن أو سفينة ، وجعلوا معهم النساء والصبيان ، لم يجز رميُهم ولا تحريقُهم » فتح الباري ج٦ ص ١٤٧

وإذا كان هنالك آراء واجتهادات أخرى تخالف ما تقدم لأئمة وعلماء آخرين ؛ فقد « اتفق الجميع على منع القصد إلى قتل النساء والولدان » فتح الباري ج٦ ص ١٤٧

ومن أعجب العَجَب أنّ بعض الذين يَصِمون الإسلام باستباحة دماء الأبرياء ، وقتل الأطفال والنساء ، هم أولئك الذين استباحوا دماء الأبرياء – وما يزالون يستبيحونها – ، وقتلوا الأطفال والنساء – وما زالوا يقتلونهم – في أفغانستان والعراق وفلسطين ، وغيرها وغيرها من البلاد

وما يزال العالم يتذكّر ، ولن ينسى العالم في مقبلات الأيام ، القنبلةَ النوويّة التي أُسْقِطت – دون ضرورة مُلْجئة – على هيروشيما ، والقنبلةَ النوويّة التي أُلْقِيَت – دون ضرورة مُلْجئة – عَلى ناجازاكي ، فدمرت كلّ شيء ، وأحرقت كلّ شيء ، ولم تُبْقِ على إنسانٍ ، طفلاً كانَ أو امرأةً أو رجلاً ، ولا على حيوانٍ ، ولا على نبات ، وغَرَسَتْ في الأرض وفي الفضاء بذور الهلاك والبلاء لقادم الأجيال

وما يزال العالم يتذكّر ، ولن ينسى العالم في مقبلات الأيام ، عشرات الملايين من النساء والأطفال والرجال المدنيين ، الذين قُتلوا في الحرب العالمية الثانية ، أو أصيبوا ، أو شُرِّدوا ، أو نالهم من الشدة والبلاء والعذاب ما يَخِفّ معه الموت

يجب أن ينتهيَ هذا كلُّه في عالَم اليوم والغد ، وأن نتكاتف ، نحنُ البشرَ جميعاً ، ونكافحَ لينتهي في أوطاننا المختلفة ، وفي كل مكان من الأرض ، القتلُ الظالم الآثم دون حق

يجب أن ترتفع أصواتُنا كلُّها عالِياً عالياً في هذا السبيل على الصُّعُدِ الرسمية والشعبية ، المحلية والدولية ، وأن نبذل في ذلك ما نستطيع وإنْ قلّ ما نستطيع

إنّ الدماء البريئة كلَّها حرام حرام ، يستوي في ذلك دماءُ النساء والرجال ، والشيوخ والأطفال ، والأقوياءِ والضعفاءِ ، والأغنياءِ والفقراء ، وأبناءِ العالم الأول والعالم الثالث والعالم العشرين !!

يجب ألاّ يتمكّن القويُّ من ذَبح الضعيف ، والغنيُّ من استغلال الفقير ، وصاحبُ السلطان والإعلام من وضع من شاء من الضعفاء بالباطل في قفص الاتهام ، والحكم عليهم بالباطل بالموت أو الحياة ، وبالسجن والقيود أو بإطلاق السراح

يجب أن ترتفع راية العدالة والمساواة والكرامة والتضامن الإنسانيّ في هذه الدنيا ، وأن تُسَنَّ لذلك القوانين ، وتقوم لذلك المؤسّسات الرسمية والشعبية ، المحلية والعالمية ، وأن يتآزر الناس الطيّبون الواعون في كل مكان ، ومن كلِّ مكان ، حتى تُتَرْجَم القوانين الجيّدة إلى واقع ملموس ، ولا يتلاعبَ بالمؤسسات الجيّدة الأقوياء القادرون

لقد بلغ العالم من التقدّم التكنولوجي المذهل ، والإمكانات الهائلة للخـــير أو الشر ، ما يجعله أكثر فأكثر بين احتمالين :

التفاهم والتعاون على أساس من العدالة والرحمة ، والأخوّة الإنسانية ، والخير المشترك

أو التنابذ والأنانية والجشع والظلم والصراع بمختلف الأشكال

الخيارُ الأوّل هو خيارُ الحياةِ والعقل والحضارةِ السامية والخلقِ الكريم ، ومصلحةِ الإنسانية والإنسان

والخيارُ الثاني هو خيارُ الشرِّ والنُّكْرِ والهلاك

إنّنا نقف مع الخيار الأول بكل ما نستطيع

ونبسط أيدينا إلى سائر الناس في هذا السبيل